



خطبة صلاة الجمعة 30/5/2014 للشيخ الطيب محمد خير الشعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكى

(يا داود إنا جعلناك خليفة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]

وقال تعالى أيضاً: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» [أبو داود والترمذي]

قال سيدنا علي رضي الله عنه لَكُمْيْل بن زياد:

(يا كُمْيْل، إن القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للعلم. احفظ عني ما أقول لك:

الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا منه إلى ركن وثيق.

العلم خيرٌ من المال، العلم يحرُسُ المال، والعلم يزكو بالإنفاق، والمال تُنْقِصُه النفقة، والعلم حاكمٌ والمال محكومٌ، ومحبةُ العلم دينٌ يُدَانُ الله تعالى به، يكسبه الطاعة في حياته، وجميل الأُحْدُوثَة بعد وفاته.

مات خَزَنَةُ الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أخصاصهم مفقودةٌ، وأمثالهم في القلب موجودةٌ).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن سليمان بن داود خيّر الله بين العلم والملك، فاختار العلم فأعطاه الله تعالى العلم والملك جميعاً.

وكان يُقال: إذا أراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم، والملك في علمائهم.

أيها الإخوة:

رغبت وزارة الأوقاف أن تكون خطبة اليوم حديثاً عن الانتخابات الرئاسية، مستفحة تعميمها بقول الله تعالى:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26]

قال ابن كثير في تفسيره: (هذه وصية من الله عز وجل لأولاده الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله، وقد توعّد الله تعالى من ضلّ عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكد والعذاب الشديد).

جاء في الصحيح: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ -وَكَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينٌ- الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» [مسلم]

وعن أبي سعيد الخدري قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ، وَإِنْ أَبْغَضَ النَّاسُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا إِمَامٌ جَائِرٌ» [الترمذي].

في المكتبة العربية الإسلامية كتاب اسمه (المنهج المسلوك في سياسة الملوك) مؤلفه: عبد الرحمن الشيزري، من وفيات عام (589 هـ). وضع كتابه هذا هدية للسلطان صلاح الدين الأيوبي وقال في مقدمته:

(لما كان الملك الناصر صلاح الدين ممن يرى الأدب وفضله، ويؤثر العلم وأهله، جمعتُ لخزانة علومه هذا الكتاب، وهو يحتوي على ظرائف من الحكمة، وجواهر من الأدب، وأصول في السياسة وتدبير الرعية ومعرفة أركان المملكة وقواعد التدبير... وسلكت في ذلك كلّ طريق الاختصار، ومذهب الإيجاز؛ لئلا تمجّه الخواطر، وترفضه الأسماع، وسميته: "المنهج المسلوك في سياسة الملوك").

جعل الشيزري كتابه عشرين باباً:

الباب الأول: في بيان افتقار الرعية إلى ملكٍ عادلٍ.

والثاني: في بيان فضل الأدب وافتقار الملك إليه.

والثالث: في معرفة قواعد الأدب.

والرابع: في معرفة أركان المملكة،... وهكذا تابع أبواب كتابه حتى ختم بذكر مواعظ تنفع الراعي والرعية.

عنوان الباب الخامس — (معرفة الأوصاف الكريمة وفضلها، وحث الملك عليها).

وقال فيه: (ينبغي للملك المنتصبٍ لتدبيرِ الرعية أن يتصفَ بالأوصاف الكريمة ويتلبَّس بها، ويجعلها له حُلُقاً مطبوعاً... إذ بها قوام دولته، ودوام مملكته، وهي خمسة عشر وصفاً:

(العدل، والعقل، والشجاعة، والسخاء، والرفق، والوقار، والصدق، والرأفة، والصبر، والعفو، والشكر، والأناة، والحلم، والعفاف، والوقار). ثم راح يتحدث عن كل وصف من هذه الأوصاف.

يقول الشيزري: (اعلم أنَّ العدلَ أشرفُ أوصاف الملك، وأقومُ لدولته؛ لأنه يبعث على الطاعة، ويدعو إلى الألفة، وبه تصلح الأعمال، وتنمو الأموال، وتنتعش الرعية، وتكمل المزية، وقد ندب الله عز وجل الخلق إليه، وحثهم عليه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]

قال الحسن البصري: إن الله تعالى جمع الخير كله والشر كله في هذه الآية. وقال: إن استقامة الملك بالثلاثة المأمور بها، واضطرابه بالثلاثة المنهي عنها.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثٌ منجياتٌ، وثلاثٌ مهلكاتٌ، فأما المنجيات: فالعدلُ في الغضب والرضا، وخشية الله في السر والعلانية، والقصدُ في الغنى والفقر. وأما المهلكات: فشحُّ مطاعٍ، وهوى متَّبِعٍ، وإعجابُ المرءِ بنفسه» [الطبراني]

حكى أن الإسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع في بلادهم: لم صارت سنن بلادكم قليلة؟ قالوا: لإعطائنا الحق من أنفسنا، ولعدل ملوكنا فينا.

فقال لهم: أيهما أفضل العدل أم الشجاعة؟ قالوا: إذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة.

وقال أفلاطون: بالعدل ثبات الأشياء، وبالجور زوالها.

وقيل لأردشير: من الذي لا يخاف أحداً؟ قال: من عدل في حكمه، وكف عن ظلمه؛ نصره الحق، وأطاعه الخلق، وصفت له النعمة، وأقبلت عليه الدنيا، فهنيئ بالعيش، واستغنى عن الجيش، وملكت القلوب، وأمن الحروب).

حكى أن المأمون كان يجلس للمظالم، فنهض يوماً من مجلس نظره والشمس قد زالت فتلقته امرأة في ثياب رثة وقالت:

يا خيرَ منتصفٍ يُهدى له الرِّشد	ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك -عميد القوم- أرملة	عدا عليها فما يقوى له أحد
فابتز منها ضياعاً بعد منعتها	لما تفرق عنها الأهل والولد

فأطرق المأمون متفكراً في مقالتها، ثم رفع رأسه وقال:

من دون ما قلت عيل الصبر والجلد	وأقرح القلب هذا الحزن والكمد
هذا أوان صلاة الظهر فانصري	وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
المجلس السبت أن يقضى الجلوس لنا	أنصفك منه وإلا المجلس الأحد

فانصرفت وحضرت يوم الأحد أول الناس، فوقفت في مجلس المتظلمين، فقال لها المأمون: من خصمك؟ فقالت: القائم على رأسك؛ العباس بن أمير المؤمنين.

فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم: أجلسها معه وانظر بينهما، فأجلست معه والمأمون ينظر إليها، فجعل كلامها يعلو، فزجرها بعض الحجاب، فقال المأمون: دعهما، فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، وأمر برد ضياعها إليها. وعقوبة العباس بظلمه لها.

ختم الشيزري في كتابه (المنهج المسلوك) حديثه عن العدل بذكره أن العدل لا يتحقق من الملك إلا بلزوم أمور منها:

إقامة منار الدين، وعمارة البلدان، وتهذيب السبل، والنظر في تعدي الولاة وأهل العز من الأعوان على الرعية؛ لأنَّ تعديهم منسوبٌ إليه، ومنها الجلوس لكشف المظالم، ومنها اختيار خلفائه في الأمور وولاته وقضاته وعماله؛ بأن يكونوا من أهل الكفاية والأمانة والحذق والدراية فيما هم بصدده).

أيها الإخوة:

ختمت وزارة الأوقاف تعميمها بدعوة الناس إلى اختيار الرجل الكفء الذي تتحقق فيه هذه المعاني مستشعرين عظمة المسؤولية وأمانة الكلمة، راجين الله تعالى أن يقسم لهذه البلدة أمرَ رشِدٍ، وأن يعيننا على تصحيح أقوالنا وأفعالنا حتَّى يعجِّل لنا بالفرج.

والحمد لله رب العالمين